الباب الأول

مفاتيح الحضارة وتحديات العصر

ويتضمن هذا الباب الفصول الآتية :

الفصل الأول : مفاتيح الحضارة فى ضوء الأمر الإلهى «اقرأ».

الفصل الثاني : الإسلام وتحديات القرن الحادى والعشرين.

الفصل الثالث : الدين فى مواجهة الإرهاب.

الفصل الأول

مفاتيح الحضارة فى ضوء الأمر الإلهى « اقرأ »

ويتضمن هذا الفصل :

١ـ البداية .
٢ـ عود على بدء .
٣ـ الإنسان .
٤ـ الدين .
٥ـ الحضارة .
٦ـ خاتمة .

١ ـ البداية :

قبل أن نتحدث عن هذا الموضوع « مفاتيح الحضارة »[١] فى ضوء الأمر الإلهى « اقرأ » يجدر بنا أن نعود بذاكرتنا إلى الوراء لنتبين الخلفية البعيدة لهذا الموضوع ، وهذه العودة بالذاكرة لا تمت بصلة إلى ماضى الإنسان القريب أو البعيد على الأرض ، وإنما تعود بنا إلى بداية الخلق قبل أن يهبط الإنسان إلى الأرض. وهذه قضية لا تمت بصلة إلى تاريخ كتبه الإنسان ، وإنما نستقى خبرها من الوحى الإلهى ، من القرآن الكريم .

فالقرآن يقص علينا أن الله بعد أن خلق الإنسان من طين ، أى : من مادة ، أضاف إلى هذه المادة عنصرًا آخر روحيًا بأن نفخ فيه من روحه ، وقد نسب ذلك إلى ذاته سبحانه ، ولم يقل :ونفخت فيه فحسب ، ولكن قال : ﴿ **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** ﴾[٢]. وبذلك كرم الله الإنسان تكريمًا لم يرق إليه كائن آخر . وقد أكد القرآن ذلك حين قال : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾[٣] . واقتضت إرادة الله أن يعد الإنسان للخلافة فى الأرض وأن يكلفه بعمارتها ، ولما كانت عمارة الأرض لا تكون إلا بالعلم فقد كان التكريم الثانى للإنسان بالعلم ، فعلمه الله الأسماء كلها قبل أن يهبط إلى الأرض ، أى :سلحه بالعلم الذى يستطيع به أن يقوم بمهمة إعمار الكون وصنع الحضارة فيه ، وجاء هذا التكليف فى قوله تعالى : ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾[٤] أى :طلب منكم عمارتها ، ومفهوم العمارة هنا مفهوم شامل لكل ألوان التعمير المادى والمعنوى .

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة بدار الأوبرا المصرية فى ٧ / ١ / ١٩٩٨م (٩ رمضان ١٤١٨ هـ) .

(٢) سورة ص : آية ٧٢ .

(٣) سورة الإسراء : آية ٧٠ .

(٤) سورة هود : آية ٦١ .

٢ ـ عود على بدء :

تلك كانت البداية ، ثم توالى إرسال الرسل إلى البشر يبلغونهم رسالات الله إلى أن جاء الدور على محمد ﷺ الذى جعله الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، فكان أول الوحى إليه عودًا على بدء ، عودًا إلى التكليف الإلهى الأول للإنسان للقيام بمهمته التى كلف بها وهى إعمار الأرض مادياً ومعنوياً ، أى : صنع الحضارة فيها ، ومن هنا كانت الآيات الخمس الأولى من الوحى الإلهى على محمد ﷺ وهى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾[1] .

فكانت هذه الآيات الأولى عودًا على بدء ، وتذكيرًا بالعلم وأهميته البالغة فى إعمار الكون . وهذا يعنى استمرار التكليف الإلهى واستمرار التركيز على العلم .

ومن هنا يحق لنا أن نقول : إن هذه الآيات الأولى من الوحى الإلهى لم تأت من فراغ، ولم تكن مقطوعة الصلة بالبداية الأولى، وإنما كانت تتويجاً لرسالات الأنبياء ممثلة فى الرسالة الخاتمة التى اصطفى الله لها محمداً ﷺ الأمر الذى يؤكد لنا أن رسالة الدين هى الإعمار والبناء، هى العمل من أجل الخير والحق والسلام. وهذا يؤكد لنا من ناحية أخرى أن الدين قد جاء لمصلحة الإنسان، ومن أجل خيره وسعادته فى دنياه وأخراه.

وبعد هذه المقدمة الضرورية نود أن نبحث الأمر بشيءٍ من التفصيل ونلقى بعض الضوء عليه حتى تتضح الصورة على نحو أفضل.

وهذا يدعونا إلى أن نتحدث عن بعض المفاهيم الأساسية فى موضوعنا هذا،

---

(١) سورة العلق : الآيات ١-٥ .

وهى مفاهيم الإنسان والدين والحضارة لنتبين من خلال ذلك أن الأمر بالقراءة ـ الذى تكرر مرتين فى الآيات المشار إليها ـ يحمل معانى عديدة تعنى الإمساك بمفاتيح الحضارة ؛ فالقراءة هنا تُفهم بمعنيين أولهما : قراءة الكتاب المسطور وهو القرآن الكريم الذى يحمل المنهج الإلهى للإنسان. وثانيهما : قراءة الكتاب المفتوح وهو الكون. والمطلوب منه القراءة هو الإنسان. فمن هو هذا الإنسان الذى تكرر ذكره مرتين أيضاً فى هذه الآيات الأولى من الوحى القرآنى ؟

٣- الإنسان :

لقد شاءت إرادة الله أن يخلق نوعين من الكائنات : أحدهما مسخَّر لا حيلة له من أمر نفسه ولا حرية له ولا اختيار؛ وهذا أمر ينطبق على جميع الكائنات الأرضية ما عدا الإنسان. فكل هذه الكائنات مسخرة بأمر ربها تسبح بحمده ولكن لا نفقه تسبيحها، والسموات والأرض قالتا : أتينا طائعين. وما فيهما مسخر للإنسان.

وفى ذلك يقول القرآن:

﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (١).

حتى الملائكة المكرمون ﴿ **لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾(٢).

أما النوع الآخر من المخلوقات ـ وهو الإنسان ـ فإنه مخلوق فريد؛ ومن هنا لم يكن مسخَّراً لغيره من الكائنات، بل جعله الله مكلفاً أى :صاحب مسئولية؛ ومن هنا جعله الله خليفة فى الأرض ليعمرها بالخير، وكرمه وفضله على جميع

(١) سورة الجاثية : آية ١٣.

(٢) سورة التحريم : آية ٦.

الكائنات، وهذه الكرامة التى اختص بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة، فهى حماية إلهية للإنسان تنطوى على احترام عقله وحريته وإرادته، وتنطوى أيضاً على حقه فى الأمن على نفسه وماله وذريته.

ومن أجل ضمان تحقيق الحماية الإلهية للإنسان حددت الشريعة الإسلامية لنفسها مقاصد خمسة لتأكيد هذه الحماية ، وهذه المقاصد هى حفظ النفس والدين والعقل والمال والنسل.

ولما كان الإنسان مكلفاً ـ أى : مسئولاً ـ فلا بد أن يكون حراً، ومن أجل ذلك منحه الله الحرية فى الفعل والترك، حتى فى قضية العقيدة الدينية نجد القرآن يؤكد هذه الحرية بكل وضوح فى قوله : ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾[1]؛ ولذلك وجدنا الإنسان فى بعض حالاته يرد على التعاليم الإلهية بقوله : ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ [2]، وفى حالات أخرى يرد قائلاً : ﴿ **سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ﴾ [3]، كما يخبرنا القرآن الكريم.

وهذه المسئولية التى أُلقيت على عاتق الإنسان لم تستطع الكائنات الأخرى تحملها، وقَبِلَ الإنسان وحده تحمل هذه المسئولية بكل ما تعنيه من التزامات. ويخبرنا القرآن بذلك قائلاً :

﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ** ﴾[4].

والأمانة المقصودة هى أمانة التكليف والمسئولية، وحتى يستطيع الإنسان تحمل تبعات هذه المسئولية وتنظيم الحرية التى منحت له ،أنعم الله عليه بنعمة العقل

---

(١) سورة الكهف : آية ٢٩.

(٢) سورة النور : آية ٥١.

(٣) سورة البقرة : آية ٩٣.

(٤) سورة الأحزاب : آية ٧٢.

الذى يميز به الخير من الشر ،والنافع من الضار ، والحق من الباطل. فالعقل أداة التفكير لدى الإنسان، ومن خلاله يستطيع أن يبتكر ويخترع ويضيف كل يوم جديداً من أجل خير الإنسان وسعادته، وبالعقل يبحث الإنسان وينقب ويفهم ويدرك العلاقات بين الأشياء، ويكتشف القوانين التى تحكم الكون ويدرك الأسباب والمسببات، ومن خلال العقل يمتلك سلاح العلم الذى سلح الله به الإنسان قبل أن يهبط إلى الأرض ، والذى أعاد القرآن التأكيد عليه فى بداية الوحى القرآنى.

ويصف حجة الإسلام الغزالى العقل بأنه « أنموذج من نور الله » ويصفه الجاحظ بأنه « وكيل الله عند الإنسان ».

ومن هنا كانت أول كلمة من الوحى الإلهى على محمد ﷺ - وهى **« اقْرَأْ »** - تتجه إلى مخاطبة هذا العقل، كما وردت فى هذه الآيات الأولى من الوحى الإشارة إلى القلم والعلم، وهذا تأكيد على أهمية القراءة التى هى مفتاح العلم، وبالتالى مفتاح الحضارة وتأكيد على أهمية تدوين العلم بالقلم وحفظه من الضياع لتستفيد منه الأجيال؛ وذلك كله من المهام الأساسية للعقل الإنسانى.

ولأهمية العلم والتعويل عليه فى إعمار الكون وصنع الحضارة فيه جعله الإسلام فريضة من فرائض الدين؛ وقد جاء ذلك على لسان الرسول ﷺ فى قوله : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** »[1].

والإنسان يستطيع - من منطلق حريته - أن يسخِّر عمله وفكره وقدراته من أجل خير الإنسان.

وهنا تكون الفرصة مواتية لصنع الحضارة والتقدم، كما يستطيع الإنسان أن يفعل العكس من ذلك تماماً ويسخِّر كل إمكاناته للهدم والتخريب والتدمير. وهنا تكون الحروب التى تهلك الحرث والنسل وتعصف بكل شىء جميل بناه الإنسان.

وحتى تنضبط حركات الإنسان ولا يعتريه الغرور أو يضله الهوى أراد الله أن

---

(١) رواه ابن ماجه.

يساعده فى اكتشاف طريقه وتوجيه طاقاته نحو البناء والتعمير من أجل خير الإنسان وسعادته فى دنياه وأخراه؛ ومن هنا كان الدين.

٤- الـديـن:

ويعد الدين نزعة فطرية أصيلة فى نفس الإنسان. وليست هناك أمة فى التاريخ عـاشت ثم مـضت، دون أن يكون لهـا تصـور ـ بشكل مـن الأشكال ـ عن الدين والألوهية والمصيـر. وإذا كان الدين يلبى حاجات الإنسان الروحـية فإن ذلك يعنى أنه قد جاء لمصلحة الإنسـان. وإذا تأملنا تشريعات الإسلام كلها بما فيـها العبادات نجد أنها جـميعاً تنطلق من منطلق واحـد هو مصلحة الإنسان وسـعادته فى الدنيا والآخرة.

ومن هنا وجدنا القرآن الكريم ـ وهو الكتاب المقـدس للمسلمين ـ يشتمل على موضوع رئيسى هو الإنسان، فكل ما فـى القرآن إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان ، أو عن أمـر يتصل بالإنسان بشكل أو بآخر ؛ فـالإنسان ـ إذن ـ هو قضية القضايا فى الدين. وهو محور هذا الكون وهو سيد فى هذا الكون. والدين هو الذى أعطى له هذه المكانة الفريدة لأن الله قد جعله خليفة فى الأرض، وأسند إليه مهمة تعمير الكون وصنع الحضارة فيه.

والمتتبع لتاريخ الحضارات السابقـة وما تركته لنا من آثار لا تزال قائمة يستطيع أن يتعرف بسهولة على ما كان للفكرة الدينية فى هذه الحضارات من دور كبير وأثر عظيم. فالدين عنصر فعال فى كل حضارة. وهذا أمر لا يمكن تجاهله.

وإذا كانت تعاليم الإسلام قد جاءت من أجل مصلحة الإنسان فإنها قد نظرت إلى هذه المصلحة بطريقة متوازنة. فقد اهتمت بأمر الدنيا كما اهتمت بأمر الآخرة، وطلبت من الإنسان أن يقيم التوازن بينهما كما جاء فى القرآن الكريم :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾(٢).

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾(٣) .

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾(٤).

وهكذا نجد أن الإسلام ينظر إلى الإنسان نظرة واقعية : يلبى ـ من ناحية ـ حاجاته المادية، وفى الوقت نفسه لا يهمل حاجاته الروحية. ومن خلال هذا المزج الفريد المتوازن بين هذين الجانبين تستقيم حياة الإنسان، وبالتالى يكون شخصية سوية قادرة على القيام بواجبها فى إعمار الكون مادياً ومعنوياً.

ولعله من الأمور اللافتة للنظر ألا يتحدث الوحى الإلهى فى بدايته عن أمور دينية بحتة تتصل مباشرة بالعقيدة وشكلها وصلة الإنسان بالله ومصير الإنسان بعد الموت . . . . إلخ، وإنما تتحدث مباشرة عن مفاتيح الحضارة : عن القراءة والعلم وتدوينه والإنسان ودوره.

ولكن التأمل فى الأمر على نحو أعمق يبين لنا أن الإنسان الذى تستقيم حياته بالعلم بمفهومه الواسع وبمقررات العقل السليم والذى يتجه إلى تسخير قواه العقلية والمادية من أجل التعمير والبناء يكون أقدر على الوصول إلى الهداية الإلهية. فالعلماء هم أقدر الناس على إدراك أسرار الخلق وجلال الخالق. ومن هنا نجد القرآن ينبه إلى هذه الحقيقة بقوله :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة القصص : آية ٧٧.

(٢) سورة الأعراف : آية ٣١.

(٣) سورة الأعراف : آية ٣٢.

(٤) سورة الإسراء : آية ٢٩.

(٥) سورة فاطر : آية ٢٨.

فالتأمل العميق فى خلق الله واكتشاف القوانين الإلهية فى تسيير هذا الكون وفى الإنسان ، كلها أمور موصلة إلى طريق الحق الذى هو طريق الله. ومن أجل ذلك يقول القرآن الكريم معززاً هذا الطرح الذى عرضناه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

فالدين ـ إذن ـ يدفع الإنسان دفعاً إلى طلب العلم ـ الذى هو فريضة إسلامية ـ إيماناً منه بأن ذلك الطريق سيوصل فى النهاية إلى خالق الكون، أى: إلى الإيمان بالله.

وغنى عن البيان أنه ليس كل إنسان بقادر على ارتياد هذا الطريق. ولم يغب ذلك عن تعاليم الإسلام بوصفه الدين الخاتم الذى ينبغى أن تتلاءم تعاليمه مع طبيعة الإنسان فى كل العصور. ومن هنا كان منهج الدعوة الإسلامية الذى نص عليه القرآن الكريم ملائماً لكل العصور ومناسباً لكل العقول :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾(٢) .

ولا يغيب عنا أن الآية بدأت بالحكمة، والحكمة هذه لا يدركها إلا أهل الحكمة أى: العلماء الذين يمتلكون مفاتيح الحضارة. ولكن الآية قد راعت أيضاً المستويات العقلية الأخرى.

إن الإسلام فى تعاليمه يدفع الإنسان دفعاً إلى صنع الحضارة وضمان استمرارها، ليس فقط بتأكيده على العلم وأهميته البالغة فى صنع الحضارة، وإنما أيضاً بتأكيده على ضرورة دراسة الحضارات السابقة والاستفادة من الدروس والعبر التى يمكن استخلاصها من هذه الدراسة.

---

(١) سورة فصلت : آية ٥٣.

(٢) سورة النحل : آية ١٢٥.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ (١).

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾(٢).

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾(٣).

وأمثال هذه الآيات كثير فى القرآن الكريم تحثنا على معرفة أسباب انهيار الحضارات السابقة ومواطن الخلل فيها حتى نتجنبه ونتفادى حدوثه مرة أخرى.

إن انهيار حضارة ما يعنى أنها قد حادت عن الطريق السليم وبالتالى تكون قد فقدت مقوماتها. وهنا لا بد لنا من إلقاء بعض الضوء على مفهوم الحضارة كما يراها الإسلام.

٥- الحضارة :

إن المتتبع لمفهوم الحضارة (بكسر الحاء وفتحها) فى المعاجم العربية يجد أنه يعنى عكس البداوة، وهذا يعنى أسلوباً مختلفاً فى التعامل مع الناس والأشياء، ونقلة فكرية أيضاً نظراً لما بين مجتمع البداوة ومجتمع الحضر من فروق.

وقد أشار ول ديورانت أيضاً فى كتابه « قصة الحضارة » (٤) إلى معنى قريب من ذلك حين يقول : إن الحضارة أو المدنية فى وجه من وجوهها هى رقة المعاملة، ورقة المعاملة هى ذلك الضرب من السلوك المهذب الذى هو فى رأى أهل المدن من

---

(١) سورة الحج : آية ٤٦.

(٢) سورة غافر : آية ٢١ .

(٣) سورة يوسف : آية ١١١.

(٤) قصة الحضارة : ول ديورانت ـ ج١ ترجمة د. زكى نجيب محمود ص٥ ـ القاهرة ١٩٧٣م.

خصائص المدينة وحدها، ويضيف قائلاً : « إن المدنية تبدأ فى كوخ الفلاح لكنها لا تزدهر إلا فى المدن».

ومن ذلك يتضح لنا أن مفهوم الحضارة مرتبط بمفهوم التقدم، فالحضارة ـ إذن ـ نقلة تقدمية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى : تقدمية فى الفكر وفى السلوك وفى أسلوب التعامل مع الناس والأشياء. وهذا كله فى إطار منظومة من القيم تتعدى الإطار القبلى الضيق إلى الدائرة الإنسانية الأوسع والأرحب.

وقد كان للإسلام دور كبير فى تنبيه الأذهان إلى هذه الدائرة الرحبة مؤكداً على العنصر الإنسانى الشامل ، كما جاء فى القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾(١).

وهذا التعارف يعد مفتاحاً للتفاهم والتعاون المشترك بين البشر فى سبيل ترسيخ قيم إنسانية مشتركة. ومن هنا اعتبر الإسلام الاعتداء على فرد واحد من أفراد الإنسان بمثابة اعتداء على الإنسانية كلها :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٢).

والحضارة ذات طبيعة مزدوجة، أى: أن لها جانباً مادياً وجانباً روحياً. ومن هنا عرفها ألبرت أشفيتسر فى كتابه « فلسفة الحضارة » بقوله : إن الحضارة بصورة عامة هى « التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماهير على السواء » (٣).

وهذا يتفق مع ما سبق أن أشرنا إليه من أن الحضارة تعد نقلة تقدمية فى الفكر وفى السلوك وفى أسلوب التعامل مع الناس والأشياء.

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٣.

(٢) سورة المائدة : آية ٣٢.

(٣) فلسفة الحضارة لألبرت أشفيتسر ـ ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ـ ص ٣٤ (دار الأندلس ١٩٨٠ م).

ويعنى كذلك أن الحضارة تحقق نفسها ـ من ناحية ـ فى سيادة العقل على قوى الطبيعة، ومن ناحية أخرى فى سيادة العقل على نوازع الإنسان، وليس يكفى إطلاقاً أن يسود العقل على الطبيعة الخارجية، فهذه السيادة وإن كانت تمثل تقدماً إلا أنه تقدم تقترن فيه المزايا بالمساوئ التى يمكن أن تعمل فى اتجاه مضاد للحضارة أو مؤذن بفسادها.

ومن أجل ذلك فإن من الضرورى أن تكون هناك قيم تحكم مسيرة التقدم على المستوى المادى.

وقد لجاء مالك بن نبى فى تعريفه للحضارة إلى معادلة رياضية تقول :

إن الحضارة = إنسان + مادة + وقت .

وبذلك فإن المشكلة الحضارية تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية هى : مشكلة الإنسان، ومشكلة المادة، ومشكلة الوقت، وتقوم الفكرة الدينية بعملية المزج بين هذه العناصر الثلاثة.

ولمالك بن نبى تحليلات طيبة ونظرات ثاقبة فى هذا الصدد، ولسنا هنا نريد أن نكرر ما قاله، ولكننا نود أن نشير إلى أن المشكلة الحضارية الرئيسية فى نظرنا هى مشكلة الإنسان، فالإنسان هو العنصر الفاعل الإيجابى فى العملية الحضارية كلها، وما عداه مسخر لخدمته ومجال لنشاطه. وهذا يتفق تماماً مع ما سبق أن أشرنا إليه من أن مخلوقات الله تنقسم إلى نوعين : نوع مسخر ، ونوع مكلف مسئول وهو الإنسان.

وإذا كانت الحضارة تتوقف فى المقام الأول على الإنسان، وكان الإنسان مكلفاً ومسئولاً فإن الحضارة تعنى التزاماً أخلاقياً، ومن هنا نفهم قول النبى ﷺ :

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (١).

فالحضارة ـ إذن ـ ليست مجرد حضارة إنتاج أو استهلاك، فهذه لا تستحق أن

---

(١) رواه مالك فى الموطأ.

يطلق عليها لفظ حضارة، فلا يكفى أن يقتنى المرء الحضارة مجرد اقتناء دون أن يكون ملتزماً أخلاقياً بمنظومة القيم الحضارية والسلوك الحضارى؛ ولهذا يمكن أن نرى فرداً من الأفراد يستخدم كل منتجات الحضارة ولكنه لا يسلك سلوكاً حضارياً. ومثل هذا الفرد لا يمكن أن يقال عنه إنه متحضر رغم الأكوام الهائلة التى يحيط بها نفسه من منتجات الحضارة.

وإذا قلنا إن الحضارة فى جوهرها تعد التزاماً أخلاقياً فإننا نعنى بذلك أن الحضارة مسئولية؛ فهى التزام أخلاقى يجعل المرء على وعى بالمسئولية الكبيرة التى يتحملها الإنسان الفرد، ليس فقط تحمله المسئولية عن أفعاله الخاصة، وإنما ـ بمعنى معين ـ تحمله المسئولية عن العالم الذى يعيش فيه. فكلنا نعيش فوق كوكب أرضى واحد أصبح مثل سفينة تتقاذفها الأمواج من كل جانب. ونحن جميعاً ـ سكان هذا الكوكب ـ مسئولون بدرجات متفاوتة عما أصاب هذا الكوكب الأرضى من تلوث فى الماء والهواء والغذاء وما أصاب طبقة الأوزون من تآكل ينذر بخطر داهم يهدد البشرية كلها.

ويعبر النبى ﷺ عن هذه المسئولية التضامنية بين البشر جميعاً فى تشبيه دقيق يصور فيه الناس جميعاً كأنهم يوجدون معاً على ظهر سفينة، وأن هناك عناصر تعبث فيها وتهددها بالغرق، وأن مسئوليتهم المشتركة تحتم عليهم أن يتضامنوا فى سبيل إنقاذها.

وفى ذلك يقول : « **مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً** » (١).

(١) رواه البخارى فى كتاب التركة.

وهذا الخرق فى السفينة يذكرنا أيضاً بثقب الأوزون الذى يهدد عالمنا الذى نعيش فيه، ويذكرنا أيضاً بغيره من مشاكل بيئية عديدة تهدد الحياة والأحياء على الأرض. تلك المشاكل التى نتجت عن التقدم التقنى المنفلت الزمام، وما تسببه النفايات الذرية ونفايات المصانع من تلويث للهواء والماء والغذاء.

والحضارة الحقيقية من شأنها أن تجعل روح التسامح تسرى بين الناس، وفى ظل هذا التسامح تتاح للمرء حرية التفكير.

وقد يفكر المرء فى اتجاه خاطئ ، ولكن لفت نظره إلى الاتجاه الصحيح لا يكون عن طريق الإرغام أو القهر، وإنما يكون بالحكمة والموعظة الحسنة، وفى ظل هذه الحضارة ينتفى التعصب الأعمى ويختفى العنف الجهول والإرهاب الفكرى.

وهذا التسامح المشار إليه يمكن أن يكون ـ من جانب آخر ـ بمثابة مدخل للالتقاء بالحضارات الأخرى والانفتاح عليها وإقامة حوار معها، وهذا يعنى فتح المجال أمام التعددية الحضارية.

إن الطبيعة المزدوجة للحضارة تعنى ضرورة التوازن الدقيق بين جانبها المادى وجانبها الروحى. وهذا هو بالضبط ما يدعو إليه الإسلام وما سبق أن أشرنا إليه.

ومن هنا فإنه لا يجوز اختزال الحضارة فى إرضاء الاهتمامات المادية فقط أو الروحية فقط أو العقلية فقط، بل لا بد أن يكون هناك توازن بين كل هذه الاهتمامات والمتطلبات، فالأزمة الحضارية الراهنة فى العالم ترجع فى رأى كثير من المفكرين إلى أن قدرة الإنسان المعاصر على تشكيل ذاته على المستوى الفردى والجماعى قد تراجعت تراجعاً حاداً خلف قدرته على تشكيل بيئته تشكيلاً مادياً.

ومن هنا يعد السعى من أجل سيادة السلوك الأخلاقى فى مقابل الحضارة الشيئية البحتة مسئولية يشترك فى تحملها كل فرد. فقد ألقت المقادير فى يد الحرية الإنسانية مصير هذا النزاع القديم المتواصل حول سيادة العقل.

ولا يجوز أن يغيب عنا أن هدف الحضارة هو الإنسان قبل أى شىء آخر. وفى تأكيدنا على معنى الإنسان وكرامته وحريته لا نعدو قول الحق إذا قلنا إن الحضارة ـ أى حضارة ـ تنتهى عندما تفقد فى شعورها معنى الإنسان. ومعروف أن الإسلام جعل الإنسان خليفة الله فى أرضه.

وهناك ارتباط لا ينفصم بين الأخلاق والإنسانية : فالأخلاق تذهب إلى المدى الذى تذهب إليه الإنسانية، والإنسانية معناها توفير الاعتبار لوجود أفراد الإنسانية وسعادتهم، وحيث تنتهى الإنسانية تبدأ الأخلاق الزائفة والحضارة الزائفة.

وإذا كان الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز قد ذهب فى تصوره إلى حد رؤية الإنسان ذئباً بالنسبة لأخيه الإنسان وأن الكل فى حرب ضد الكل فإن التصور الإسلامى الذى يتلاءم مع الحضارة الحقيقية أو الذى يعبر عن لب هذه الحضارة وينبغى أن يصل إلى وعى الأفراد والجماعات هو « مسئولية الكل عن الكل »، فالجميع ـ كما يقول القرآن ـ مخلوقون من نفس واحدة.

وقد أعطى الله الإنسان من الطاقات والاستعدادات والإمكانات ما يتناسب مع ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، فهناك تناسق بين القوانين الإلهية التى تحكم الأرض وتحكم الكون كله والقوانين التى تحكم الإنسان، وما حباه الله به من قوى وطاقات ؛ حتى لا يقع التصادم بين هذه القوانين وتلك، وحتى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون.

وعمارة الأرض تتحقق ـ كما سبق أن أشرنا ـ بالعلم الذى هو فريضة إسلامية، وبالتقنية التى هى تطبيق للعلم ، ومن أجل ذلك تدخل تحت مفهوم الفريضة، ولكن العمارة على هذا النحو المشار إليه ليست هى الحضارة بإطلاق، وكذلك ليست هى العمارة بإطلاق ، بل هى أحد جوانب العمارة، ويمكن أن يطلق عليها مصطلح الحضارة الشيئية أو المادية. أما الجانب الآخر الذى به تكتمل الحضارة ـ أو عمارة الأرض بالتعبير القرآنى ـ فإنه يشمل كل القيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية.

ومن هنا فإن الحضارة فى المفهوم الإسلامى تعنى تحقيق المشيئة الإلهية فى عمارة الأرض مادياً ومعنوياً ؛ وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله فى الأرض .

وهكذا نجد أن سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة لا تكفى وحدها لبناء الحضارة، بل لا بد أن ينضم إلى ذلك أيضاً سيطرة الإنسان على نوازعه الداخلية وأهوائه وشهواته حتى تكون منضبطة بالقيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية، وبذلك تتم عمارة الأرض كما أراد الله، وبذلك يكون الإنسان فى صلة مستمرة بالله خالق الكون تصحح له دائماً مساره على الأرض حتى لا يضل الطريق ، فيظن أنه سيد هذا الكون مع أن دوره لا يعدو أن يكون سيداً فى هذا الكون، وهذا هو معنى خلافته لله فى الأرض.

٦ـ خاتمة :

ولعله قد أصبح واضحاً مما تقدم مدى الربط الوثيق بين الآيات الأولى من الوحى القرآنى التى بدأت بالأمر بالقراءة وبين مفاتيح الحضارة. وقد أدرك المسلمون الأولون ذلك فاستطاعوا ـ بعد فترة زمنية قصيرة نسبياً من ظهور الإسلام ـ أن يقيموا حضارة زاهرة كانت من أطول الحضارات عمراً فى التاريخ. ولعله من المفيد فى هذا المقام أن نمارس شيئاً من النقد الذاتى للحال التى وصلنا إليها نحن المسلمين. فالنقد الذاتى هو بداية الطريق الصحيح نحو الإصلاح.

فعندما اختفى الفهم المستنير للتعاليم القرآنية، وأصبح المسلمون يتعاملون مع القرآن على أنه كتاب يردد الناس آياته دون فهم، ويقرأون به على الأموات، ويصنعون منه الأحجبة، ويضعونه فى البيوت أو السيارات بمثابة ديكور أو للبركة، ثم فى الفترة الأخيرة يتخذون منه حرفة التداوى بالقرآن ـ عندما صار الأمر على

هذا النحو اختفى الفهم السليم وغابت معالم الطريق، وفقد المسلمون مفاتيح الحضارة التى ظلت فى أيديهم ما يقرب من ثمانية قرون.

ومن هنا فإن عدم مشاركة المسلمين فى صنع الحضارة يعنى أنهم قد تخلوا عن مسئوليتهم فى عمارة الأرض، وتركوها لغيرهم ، وهى تلك المهمة التى أكدها القرآن الكريم.

فماذا يريد المسلمون ؟

هل ينتظر المسلمون انهيار الحضارة المعاصرة حتى يقيموا حضارتهم على أنقاضها ؟ إذا كان الأمر كذلك فسيطول بهم الانتظار.

أم يرى المسلمون أن واجبهم فى المشاركة فى صنع الحضارة المعاصرة يتمثل فى الاهتمام بالجانب الروحى الذى أهملته الحضارة الحديثة حتى يقيم المسلمون ـ بذلك ـ التوازن الذى اختل فى الحضارة الحديثة ؟

إن هذه مهمة جزئية ليست هى ما يريده الإسلام من أبنائه، فالإسلام لا يفصل الجانب المادى عن الجانب الروحى، والنموذج الذى ينبغى أن نسعى إليه ونقدمه لأمتنا ـ ولغيرنا ـ لا بد أن يكون جامعاً للأمرين، وإلا كنا خائنين لرسالتنا نرتضى لأنفسنا أن نكون لقمة سائغة فى فم القوى العظمى.

إننا فى عالم اليوم فى عصر لم يعد يعترف إلا بالقوة. وقوة اليوم لم تعد هى قوة السلاح فقط أو قوة الإيمان فقط، وإنما هى القوة التى تجمع بين الأمرين، وهذا هو جوهر تعاليم الإسلام.

فلا يجوز لنا ـ إذن ـ أن نتخلى عن فريضة العلم، وما يرتبط به من تقنية متطورة بجوار قيامنا بفرائض الروح والقلب.

ومن هنا فإنه لا مناص لنا من أن نتمكن من حضارة العصر بكل منجزاتها

المادية، وتطوراتها العلمية والتقنيـة، فى الوقت الذى نراجع فيه موقفنا من الإسلام وتعاليمه، لنزيل الغبش الذى غطى على تعاليم الإسلام فحجب عنا الرؤية السليمة الواضحة لهـذه التعاليم على مدى القرون الماضيـة، وهذا يتطلب تحولاً جذرياً فى العقلية الإسلامية لتنسجم مع تعاليم الإسلام تصـحيحاً للأوضاع الغريبة، والتقاليد البالية، والقصور العقلى، والفهم السقيم الذى أراد أن يشد تعاليم الإسلام لتنسجم مع ما درجنا عليه من عقليـة متخلفة أو يتخذ منه ستاراً لعمليـات إرهابية إجرامية يرفضها الإسلام رفضاً قاطعاً.

فالعيب ـ إذن ـ فينا نحن المسلمين وليس فى الإسلام. فالإسلام سيظل شامخاً بتعاليـمه، إذا اشرأبت أعناق المسلمين وقلوبهم وعقولهم نحـوه ـ بصدق ـ جذبهم إلى أعلى، وإذا أرادوا أن يخـضعـوه إلى فهـمهم السـقيم تخلى عنهم، وتركـهم يسقطون فى وهدة التخلف.

إن الأمر الذى يـدعو للأسى والحـسرة أننا كلمـا أدركنا ما نعـانيه من قـصور وعجز وتخلف فى المجال الحضارى فى عالم اليـوم لجأنا إلى حيلة دفاعية نبرر بها موقفنا فنخدع أنفـسنا بأنه إذا كان قد فاتنا اللحاق بركب الحضارة الحـديثة المؤسسة على العلم والصناعة فإننا ننعم بإيمان دينى لا ينعم بمثله بناة تلك الحضارة.

وهذا ادعاء ينقض نفسه بنفسـه، لأننا لو كنا حقاً قد تشربنا الدين الذى نؤمن به لوجب علينا بحكم هذا الدين نفـسه أن نسبق الدنيا فى إقـامة الحضارة القـائمة على كشوف العلم وما ينبنى عليها، لأن الإسلام دين يحض على العلم بأى معنى فهمنا كلمة «عـلم» فإذا كان العلم الذى بنيت عليه حضارة عـصرنا هو ـ أساساً ـ العلم بقوانين الطبيعة، فذلك ما دعانا إليه القرآن الكريم كلما دعانا إلى تدبر خلق الله ، فـخلق الله هو هذا الكـون بشـتى كـائناته وظواهره، وتدبر هـذه الكائنات والظواهر لا يعنى النظر إليها نـظرة المتفرج، بل يعنى تعمقهـا والوصول إلى درجة العلم بالأسس التى تحكم سلوكها والقوانين التى تنظم مـسيرتها، وذلك من صميم النشاط العلمى وما ينطوى عليه.

فإذا أمرنا القرآن الكريم بأن ننظر إلى الإبل كيف خُلقت أو إلى السحب كيف تتجمع لتنزل ماءها إلى أرضنا فتحييها بما تنبته من نبات، فإن الهدف من ذلك ينتهى بنا إلى درجة العلم بالحيوان أو العلم بالنبات.

وينطبق ذلك على كل كائن أو ظاهرة مما يجب علينا ـ بحكم الدين ـ أن نتناوله بالنظر [1]، ولكننا للأسف لا نفعل شيئاً من ذلك، ونعتقد أن مجرد قراءة القرآن وحفظه يكفيان لاكتمال إيماننا بالدين، فأين ذلك من قول الله تعالى :

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [2].

إن كثيراً من آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن الظواهر الكونية والكائنات المختلفة تنتهى بالدعوة إلى حث القوى الفكرية لدى الإنسان لتقوم بأداء وظيفتها فى هذا الصدد ممثلاً ذلك فى قائمة الأفعال التى تعبر عن التفكير والتعقل والتفقه والاعتبار والتدبر والتبصر والتذكر والعلم ، وغيرها من أفعال مشابهة.

لقد تم التركيز فيما يسمى بالصحوة الإسلامية على أمور العبادات ، وهذا أمر مطلوب، واهتمت بالكثير من المظاهر والشكليات، وهذا من قبيل الهزل فى وقت الجد.

إن المسألة الملحة اليوم هى البحث عن مخرج للمسلمين من وهدة التخلف الشامل، وذلك لن يكون إلا باستعادة الوعى بالإسلام بوصفه دين العقل والعلم والحضارة.

والصحوة الإسلامية تظل مجرد كلمة خالية من المضمون ما دامت لم تصل إلى مرحلة عودة الوعى بالإسلام، وعودة الوعى هى الحالة التى يمكن أن تكون المنطلق الحقيقى للفهم الشامل للإسلام بوصفه دين العزة والكرامة، دين التقدم والحضارة، دين العلم والمدنية، دين الدنيا والآخرة ، دين التوازن بين الجسم

---

(١) د. زكى نجيب محمود ـ صحيفة الأهرام ٥/٦/ ٩٠.

(٢) سورة محمد : آية ٢٤.

والروح ، دين الاعتدال والسماحة، دين السمو المادى والمعنوى، وبصفة عامة: دين السلوك المسئول على جميع المستويات الفردية والاجتماعية والدينية .

والسلوك المسئول هو دائماً سلوك حضارى، والتعاليم التى تنتج هذا السلوك المسئول هى التعاليم التى تدفع معتنقيها إلى صنع الحضارة والمشاركة فيها، لا بوصفهم مجرد مستهلكين أو متفرجين، ولكن بوصفهم فاعلين مؤثرين.

إن ديناً بهذا الوصف لا يمكن أن يجعل أمر الحضارة من المسائل الهامشية ضمن اهتماماته، وإنما يجعلها فى قائمة أولوياته.

ومن هنا يمكننا أن نقرر أن الحضارة فريضة إسلامية، وواجب دينى لا يجوز للمسلمين أن يتخلوا عنه، بل عليهم أن يجعلوه فى قمة أولوياتهم حتى يعودوا مرة أخرى أعزة، ويستعيدوا مكانهم الريادى ومكانتهم العليا فى عالم اليوم باستعادتهم لمفاتيح الحضارة والدخول فى سباق التقدم الحضارى الذى يعود على الإنسانية بالخير. فالقرآن يحثنا على ذلك حين يقول :

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾[1]، ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾[2].

❖❖❖

(١) سورة البقرة : آية ١٤٨.

(٢) سورة المطففين : آية ٢٦.

الفصل الثانى

الإســـلام
وتحديات القــرن
الحـــادى والعشـــرين

ويتضمن هذا الفصل :

١ـ تمهيد .

٢ـ تحديات القرن الحادى والعشرين.

٣ـ تحديات داخلية .

٤ـ تحديات خارجية .

٥ـ خاتمة .

١ - تمهـــيـد :

يستعد العالم لدخول القرن الحادى والعشرين، وليس هذا مجرد انتقال من فترة زمنية إلى فترة زمنية أخرى، وإنما هو - فوق ذلك - نقلة حضارية تعنى فكراً جديداً وقيماً جديدة تتناسب مع ما جد فى العالم من متغيرات، وما طرأ عليه من تطورات.

ولأن العالم الإسلامى جزء من عالمنا - الذى أصبح كما يقال كثيراً مثل قرية كونية صغيرة - لا بد له من الاستعداد للدخول إلى هذا القرن الجديد. لكن هذا الاستعداد له متطلبات يتحتم الوفاء بها، فليس المقصود كما قلنا هو مجرد انتقال زمنى لأن ذلك ينطبق على كل الكائنات التى لا تشعر بالزمن ولا تعى ماذا يعنى، ولكن الأمر يتطلب - بالنسبة إلى الإنسان - ضرورة الوعى بالزمن، وهذا الوعى يتم بمعنى مزدوج : فهو وعى بحركة الزمن من ماض إلى حاضر إلى مستقبل وأنها دائماً فى صعود. فالتاريخ يسير إلى الأمام ولا يتراجع إلى الوراء، ثم هو وعى بالتطور التاريخى، والذى يعنى نقلة حضارية تشتمل على إضافة حضارية يسجلها التاريخ. فالاستعداد لدخول القرن الحادى والعشرين يعنى - إذن - الوعى بالتاريخ، ولا يكون ذلك إلا إذا أزيلت العقبات التى تعترض طريق عودة هذا الوعى. وهذه العقبات تمثل تحديات أمام الأمم. والأمم التى تستجيب للتحدى وتتغلب عليه تحيا وتعى ما حولها. أما التى تنهزم أمام التحدى فإنها تفنى وتطوى صحيفتها فى زوايا النسيان دون أن تقوى على التحرك نحو المستقبل.

فهل أمتنا الإسلامية مستعدة لدخول القرن الحادى والعشرين ؟ وهل يستطيع الإسلام أن يواجه التحديات الكثيرة التى تعترض طريقه لدخول القرن الحادى والعشرين ؟ بل هل استطاع أن يتخلص من تحديات القرن العشرين ؟ ثم ما هى هذه التحديات التى يشتمل عليها القرن الحادى والعشرون ؟.

٢ - تحديات القرن الحادى والعشرين

عندما نتأمل التحديات التى تعترض سبيل الإسلام لدخول القرن الحادى والعشرين فإننا نجدها قد بدأت فى الظهور فى النصف الأخير من هذا القرن، وبصفة خاصة فى العقد الأخير من القرن العشرين الذى حدثت فيه تطورات بالغة الأهمية وعلى رأسها انهيار الاتحاد السوفيتى السابق، وظهور القطب الواحد فى العالم، وانتشار الخوف غير المبرر من الإسلام فى الغرب بوصفه العدو البديل أو الخطر القادم الذى يهدد الحضارة العالمية، والترويج لنظرية صراع الحضارات ونهاية التاريخ، والتطورات العلمية الجديدة مثل الاستنساخ وزراعة الأعضاء، وغيرها مما قد يزعزع المعتقد الدينى - ومنه الإسلام - فى عالم القرن الجديد.

وإذا كانت هذه التحديات تمثل تحديات خارجية فهناك تحديات داخلية عديدة من أهمها : انتشار ظاهرة الإرهاب فى العالم الإسلامى على نطاق واسع، رغم أنها تعد ظاهرة عالمية، ويرتبط بذلك أيضاً الفهم الخاطئ للإسلام، والتفسيرات المغلوطة لتعاليمه، وكذلك خطر الأصدقاء الجهال للإسلام الذين هم أشد ضرراً على الإسلام من خصومه.

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل يبين موقف الإسلام من ذلك كله.

ونبدأ بتحديات الداخل لأن ترتيب البيت من الداخل ينبغى أن تكون له الأولوية، فضلاً عن أنه من ناحية أخرى مرتبط بشكل وثيق بتحديات الخارج، بمعنى أنه إذا تعافى الإسلام من أمراضه الداخلية وتغلب على تحديات الداخل فإنه حينئذ يكون فى مقدوره مواجهة التحديات الخارجية. أما إذا لم يستطع التغلب على تحديات الداخل فإنه لن يكون فى وضع يسمح له بالتغلب على تحديات الخارج.

٣- تحديات داخلية :

أ- ظاهرة الإرهاب :

تُعد ظاهرة الإرهاب على رأس التحديات الداخلية التى تواجه العالم الإسلامى. وقد شهد عام ١٩٩٧م على وجه الخصوص تطور هذه الظاهرة بشكل مخيف، إذ اتجه الإرهاب إلى القتل والتدمير للأبرياء دون تمييز بين طفل وامرأة وشيخ وشاب، وتعدى ذلك إلى التمثيل بالقتلى دون سبب مفهوم، وفى كثير من الأحيان تحت شعار إسلامى، وبصيحات الله أكبر .

ونتائج هذا الإرهاب مدمرة لقدرات الشعوب الإسلامية اقتصادياً، وسياسياً، واجتماعياً، وتعوق تنفيذ خطط التنمية الشاملة، ولا شك أن الإرهاب فى العالم الإسلامى يتلقى الدعم والتخطيط من رءوس الإرهاب فى الخارج وبخاصة فى الدول الأوروبية التى توفر الملاذ وحرية الحركة لهؤلاء تحت مظلة الحماية المزعومة لحقوق الإنسان.

وفى تقديرى أن مواجهة الإرهاب فى العالم الإسلامى قد اتسمت بقصور شديد، إذ نظر الكثيرون إليها على أنها صراع بين الإرهاب والحكومات. ومن هنا لم يظهر الدور الشعبى فى الصورة، وترك الأمر - فى غالب الأحيان - للحكومات بأجهزتها الأمنية. وذلك خطأ واضح؛ فخطر الإرهاب يمس الشعب كله بجميع فئاته، ويمس مصالح كل فرد فيه؛ فالإرهاب يهدف إلى زعزعة استقرار المجتمع وتهديد أمن الوطن والمواطنين.

وقد رأينا بعد حادث الأقصر البشع كيف أن نتائج هذه الجريمة النكراء قد أصابت المواطن العادى فى كل الأماكن السياحية بالضرر البالغ فى مصدر رزقه، بنفس القدر الذى وقع على صناعة السياحة والاستثمار والاقتصاد، بالإضافة إلى الضرر الذى أصاب سمعة مصر فى العالم، وسمعة الدين الإسلامى ذاته.

ومن هنا فإن التغلب على التحدى الذى يمثله الإرهاب يجب أن يكون مسئولية المجتمع بأسره. فلم يعد مقبولاً ولا معقولاً أن يعتمد الكل على المواجهة الأمنية فقط، أو أن تتحمل أجهزة الشرطة دون غيرها كل المسئولية.

إن الأمر يتطلب وضع خطة قومية شاملة لمواجهة الإرهاب تحدد فيها واجبات ومهام كل جهة ـ حكومية كانت أم أهلية ـ ويتم تنفيذ ذلك عن طريق خطط فرعية خاصة بمجالات عمل كل جهة وذلك فى إطار الخطة العامة.

أما ما يطلقه الإرهابيون من شعارات إسلامية فإنها لا يمكن أن تخدع عاقلاً لأن الأديان كلها، والإسلام بصفة خاصة، ترفض العنف والقتل والتخريب، وتدعو إلى المحبة والأخوة والسلام. والإسلام إذ يرفض العدوان رفضاً قاطعاً فإنه يعتبر قتل نفس واحدة كأنه قتل للإنسانية كلها ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾[1].

ب- الفهم الخاطئ للإسلام :

والإسلام ـ دين الاعتدال والوسطية ـ يكره التطرف والغلو فى الدين ويدعو إلى التيسير على الناس والرحمة بهم، ورغم تعاليم الإسلام الواضحة فى هذا الشأن إلا أن هناك اتجاهات تفسر الإسلام على هواها، وتريد أن تشده ناحية اليمين أو ناحية اليسار بتفسيرات خاطئة تجعل منه إما ديناً جامداً منغلقاً متقوقعًا لا يقوى على مسايرة الزمن، ولا يرعى متغيرات الحياة. وبذلك يشدونه إلى فهمهم السقيم ويضيقون رحمة الله الواسعة، وإما أن يجعل منه فريق آخر دينًا دموياً عدوانياً متعطشاً لسفك الدماء. وكلا الاتجاهين لا مكان له من الحقيقة ولا يعبر إلا عن الرؤى المريضة لمن يتحدثون بها.

---

(١) سورة المائدة : آية ٣٢.

فالإسلام إذ يرفض الجمود والانغلاق والتقوقع، فإنه من ناحية أخرى يرفض رفضاً قاطعاً كل شكل من أشكال العنف أو العدوان أو القتل والتخريب، ويسمى القرآن ذلك بأنه إفساد فى الأرض يعاقب مرتكبوه بأشد العقاب فى الدنيا ثم فى الآخرة : ﴿ **أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (١).

والفهم الخاطئ للإسلام يرجع إما إلى جهل أصحابه بجوهر تعاليم الدين كما هو الحال لدى الفريق الأول، أو خداع الجماهير برفع شعارات دينية لتحقيق أغراض دنيوية كما هو الحال لدى الفريق الثانى.

والأمر يحتاج إلى كشف زيف هذه التفسيرات الباطلة فى كلتا الحالتين، وإبراز قيم الإسلام السمحة التى تحض على الرحمة والتراحم والعدل حتى مع الأعداء.

وربما يكون الفريق الأول حسن النية فى مقابل سوء نية الفريق الثانى. ولكن حسن النية قد يؤدى إلى عواقب وخيمة لا تحمد عقباها. فالصديق الجاهل قد يكون أشد خطراً ـ دون أن يدرى ـ من العدو العاقل، على الأقل لأن العدو يسفر عن عداوته؛ وبالتالى يمكن أخذ الحذر منه والاستعداد لمواجهته. أما الصديق الجاهل المحسوب على الإسلام والذى يبدى أشد الحرص على حمايته بأسلوبه المتخلف فإنه بذلك يمثل عقبة فى طريق التقدم ولا يستطيع أن يفهم ما يدور حوله من تطورات فضلاً عن فهم جوهر الإسلام وروحه بوصفه ديناً حضارياً إنسانياً بكل معنى الكلمة.

وحتى يستطيع الإسلام أن يتجه بخطى ثابتة وحثيثة نحو المستقبل فلا بد لأتباعه من التخلص من هذا المرض المزدوج وذلك عن طريق الفهم المستنير للإسلام وتعاليمه والكشف عن الوجه الحضارى لهذا الدين الذى تتماشى تعاليمه

---

(١) سورة المائدة : آية ٣٣.

مع كل زمان ومكان وبيـان قدرته على التطور ومواجهة مـتغيرات الحـياة، وقدرته الذاتية فى الصمود أمام كل التحديات. وتاريخ الإسلام شاهد على ذلك.

وإذا اتضح لجماهير المسلمين أن الإسـلام برىء من جهل أصدقائه ومن شذوذ من يدّعون أنهم يقـتلون دفاعاً عنـه فإن ذلك يمهد السـبيل للتغلب على الصـعاب والتحديات الأخـرى الخارجية والتى تتـخذ من الفهم الخاطئ للإسـلام من جانب هذين الفريقين ذريعة لوصم الإسلام بكل الرذائل.

٤- تحديات خارجية :

وإذا كان الأمر كذلك وهو أن التحديات الداخليـة مرتبطة بالتحديات الخارجية فإن علينا أن نبين أهم التحديات الخارجية وسبل التغلب عليها حتى يمكن الانطلاق إلى دخول القرن الحادى والعشرين.

أ) الخوف من الإسلام فى الغرب :

أثناء الحرب الباردة كان الغرب ما يزال فى حـاجة ماسة إلى المعاونة من جانب الإسلام فى صراعه مع الشيوعية، أو لنكن أكثر واقعية ونقول: كان فى حاجة إلى مهادنة الإسلام. فالغرب يعلم علم اليقين أن الإسلام والشيوعية لا يجتمعان. ومن هنا فقد كان من المفيد للغرب أن يتعاون مع الإسلام فى هذا الصدد. ولكن بعد أن انتهت الحرب الباردة وسـقطت الشيوعية بسقوط الاتحاد السـوفيتى السابق فى بداية التسعينات لم يعد الغرب فى حاجة إلى الإسلام فانتهت سياسة التعاون والمهادنة.

لكن الأمـر لم يقف عند هذا الحـد، بل راح الغرب يـبحث عن عـدو بديل للشيوعيـة، ولم يجـد إلا الإسـلام ليكون هـو العدو البديل. إذ يبدو أن الغرب لا يسـتطيع أن يعـيش دون أن يكون له عدو ، فـإذا لم يكن هناك عـدو حـقيـقى فليتصور عدواً. وكان العدو المتصوَّر هو الإسلام.

وانتشرت فى الإعلام الغربى فكرة الخوف من الإسلام أو ما يطلق عليه «إسلاموفوبيا» . ولم يستطع كبار المسئولين فى الغرب أن يخفوا هذا التصور، فورد ذلك على لسان الأمين العام السابق لحلف الأطلنطى، وكان ما يزال فى منصبه المهم، كما ورد على لسان أحد الرؤساء فى الغرب.

وبدأ الحديث فى الغرب عن الأصولية الإسلامية، والإرهاب الإسلامى، والخطر الذى يتهدد الحضارة الغربية من هذا الشر المدمر والذى هو الإسلام فى زعمهم. واختلطت الأوراق وتاهت الحقائق وسط التدفق الإعلامى الغربى فى هذا التيار الجارف.

وقد ساعد على شيوع هذا التصور تزايد موجات العنف فى بعض البلاد الإسلامية. ومن المفارقات الغريبة أن الغرب نفسه بدأ يوفر الملجأ والملاذ وحرية الحركة لرءوس الإرهاب فى العالم الإسلامى.

وهذا التوجه الغربى يعنى عدم السماح بتطوير قدرات العالم الإسلامى العسكرية، بل وحتى الاقتصادية والعلمية رغم ما يغدقه الغرب من إمكانات هائلة على إسرائيل التى زرعها الغرب شوكة فى ظهر العرب لتعوق أى طموحات فى تطوير قدراتهم، وتنمية بلادهم. ويعنى أيضاً عدم السماح للعالم الإسلامى بأى نصيب فى المشاركة فى رسم سياسة العالم عن طريق تمثيل العالم الإسلامى بمقعد دائم فى مجلس الأمن.

وأذكر أننى شاركت عام ١٩٩٣م فى مؤتمر دولى بالعاصمة النمساوية فيينا حول موضوع « **السلام من أجل الإنسانية** » وتقدمت باقتراح يقضى بضرورة أن يكون للعالم الإسلامى ـ الذى يمثل أكثر من خمس سكان العالم ـ مقعد دائم فى مجلس الأمن. وقلت آنذاك : « لكى تتاح الفرصة أمام المسلمين للإسهام بفاعلية فى سلام العالم أقترح أن يحصلوا على مقعد دائم فى مجلس الأمن الدولى ، وينبغى أن يكونوا ممثلين فى هذا المجلس بدولة يختارونها من بين الأعضاء الممثلين فى منظمة المؤتمر الإسلامى . فالمسلمون يؤلفون خُمس سكان العالم. ومن أجل ذلك فإن من حقهم أن يكون لهم صوت مسموع ».

ولكن عز على بعض المشاركين أن يكون للمسلمين مثل هذا الدور فعارضوا الاقتراح بحجة تنم عن مغالطة مكشوفة، إذ زعم البعض أن ذلك يعنى أن يكون هناك أيضاً تمثيل فى مجلس الأمن للفاتيكان ومجلس الكنائس العالمى . . . . إلخ وأن يصبح المجلس مكوناً من مشايخ وقساوسة، وهذا كلام يعد من قبيل الهزل فى وقت الجد. فالأمر يتعلق بتمثيل شعوب يبلغ تعداد سكانها خمس سكان العالم، ولا علاقة له بتمثيل الدين كدين. وفضلاً عن ذلك فإن الشعوب المسيحية فى أوروبا ممثلة بأربعة من الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن وهى بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية.

ب) صراع الحضارات :

ويرتبط بقضية الخوف من الإسلام الترويج فى الغرب لنظرية صراع الحضارات، وأن هذا الصراع أمر حتمى. وبطبيعة الحال يوضع فى الحسبان فى هذا التفكير ـ بالدرجة الأولى ـ صراع الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية. ويستعيد البعض ذكريات الماضى القريب والبعيد لهذا الصراع.

والهدف فى النهاية هو ضرورة هزيمة الحضارة الإسلامية حتى تتمكن حضارة واحدة هى الحضارة الغربية بأن تكون لها اليد الطولى والسيطرة على العالم كله، وتتأكد بصورة قاطعة فكرة العولمة التى سنتحدث عنها فيما بعد. ولعل ذلك كله يشكل مقولة نهاية التاريخ التى يتم الترويج لها أيضاً.

وقد سبق للفيلسوف الألمانى المعروف هيجل ـ الذى توفى عام ١٨٣١م ـ أن أشار فى كتابه المعروف « فلسفة التاريخ » إلى أن الإسلام قد اختفى منذ زمن طويل من أرض التاريخ العالمى ـ أى: لم يعد له تأثير فى توجيه أحداث التاريخ ـ بعد أن ركن إلى الاسترخاء واستسلم إلى السكون الشرقى. وهنا ـ كما يحدث أيضاً فى الكتابات الغربية المعاصرة عن الإسلام ـ يتم الخلط بين الدين الإسلامى وبين الواقع الحضارى المتخلف الذى تعيشه الأمة الإسلامية. وهذا الواقع يمثل مرحلة عارضة فى تاريخ المسلمين، وليس حكماً أبدياً بالجمود والتحجر على خمس سكان العالم.

وحقيقة الأمر أنه إذا كان البعض يتبنى فى الغرب نظرية حتمية صراع الحضارات فإن الإسلام كدين لا يرى ذلك أمراً حتمياً لا مفر منه لأن الصراع القائم بين البشر لا يقتصر على الصراع بين الحضارات ، فهناك أيضًا صراعات تقع بين البشر داخل الحضارة الواحدة، وما أكثر مثل هذه الصراعات فى عالمنا الذى نعيش فيه.

ولكن موقف الإسلام المبدئى الثابت يتلخص فى أن تعددية الأجناس فى المجتمعات البشرية ـ أو بمعنى آخر تعددية الحضارات واختلافها ـ لا يجوز أن تكون مدخلاً للنزاع والشقاق، وأن تمثل عائقاً أمام توحيد جهود الناس وتآلفهم فيما بينهم. فالتعددية ينبغى أن تفتح الطريق أمام التعارف والتعاون والتوحد. وهنا تكمن المهمة الإنسانية التى ينبغى على الإنسان حيثما كان موقعه أو معتقده أن يتحمل مسئوليتها. ويشير القرآن الكريم إلى ذلك بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[1].

وهنا جعل القرآن الاختلافات بين البشر مدخلاً للتعارف والتآلف والتعاون لا مقدمة للنزاع والشقاق والصراع. فنظرية الصراع الحتمى للحضارات مرفوضة أساساً من الإسلام الذى يقرر أن الناس جميعاً قد خلقوا من نفس واحدة، وأن العدوان على نفس واحدة يعد عدواناً على البشرية كلها وليس على طائفة معينة أو حضارة بعينها. ومن هنا فإن التصور الإسلامى أوسع دائرة وأرحب أفقاً وأعمق فى إنسانيته من تلك التصورات العنصرية التى تسعى إلى إعلاء شأن حضارة ما على غيرها من الحضارات والثقافات.

ج) العولمة :

ومنذ سنوات مضت ظهر الحديث عما يسمى بالنظام العالمى الجديد، وبخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى السابق وأصبح الحديث عن « العولمة: Globalization » أمرًا مطروحاً.

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٣.

وعلى الرغم من أن ملامح هذا النظام العالمى الجديد أو العولمة لم تتضح بصورة قاطعة فإن الهدف من هذا النظام الجديد أو العولمة ـ أو الكوكبية أو الكونية كما يحلو للبعض أن يسميه ـ لم يعد يخفى على أحد. فالمقصود هو أن هناك حضارة غربية قائمة لها قيم ولها معايير معينة، وعلى الجميع فى العالم أن يتواءم معها وأن يعتنق مبادئها ونظمها إذا أراد لنفسه مكاناً فى مسيرة العالم.

وهذا يعنى أن تسود حضارة واحدة بقيمها ومثلها . وأن يترسخ مفهوم العولمة أو القطب الواحد فى الأذهان. وبذلك يختفى مفهوم التعددية الحضارية المتعارف عليه منذ فجر التاريخ. ومن ثم يصبح الخضوع لنظام العولمة أمراً لا مفر منه، ولا فكاك لأى دولة فى العالم من أن تنضوى تحت لوائه، وإلا فإن الزمن والأحداث سوف تتجاوزها.

ويعد نظام العولمة ـ بالمفهوم المشار إليه ـ من التحديات الكبرى التى تواجه العالم الإسلامى فى القرن القادم. فهل يمكن إخضاع الإسلام والمسلمين لهذا النظام حيث تختفى الحواجز الحضارية والثقافية فى العالم الجديد ؟

إن حقائق الدين الإسلامى وطبيعته ووقائع التاريخ تبين أن الإسلام لا يمكن أن يذوب فى أى نظام آخر، فله ذاتيته المستقلة وكيانه الخاص. ولكن هذا التصور الإسلامى لا يتناقض مع أية كيانات أخرى؛ لأن التعددية الدينية والحضارية قد كفلها الإسلام منذ قامت للإسلام دولة، وترسخت فى دستور المدينة الذى أعلنه محمد ﷺ .

وقد كانت الحضارات فى البلاد التى دخلها الإسلام روافد أثرت الحضارة الإسلامية. فالإسلام يعتبر الحضارات إنجازاً إنسانياً، وإضافات للتراث الإنسانى الذى هو بطبيعته أخذ وعطاء. ولا توجد أمة عريقة فى التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث. وإذا كان الأمر كذلك فإن هدف نظام العولمة يعد مناقضاً لطبيعة الأمور. فلا يمكن أن تذوب السمات الحضارية الأساسية للشعوب وبخاصة الشعوب العريقة التى لها بصمات حضارية لا تمحى فى سجل التاريخ.

والإسلام إذ يقر التعددية الدينية والحضارية فإنه من ناحية أخرى يقر فى الوقت نفسه بأن هناك قواسم مشتركة بين كل الحضارات. وهذه القواسم المشتركة تعد المدخل الحقيقى للتعاون بين الحضارات وليس الصراع فيما بينها. ومن هنا كان تأكيد القرآن الكريم على أن الاختلافات بين الشعوب لا يجوز أن تكون عائقاً أمام التعارف والتآلف والتعاون بين الأمم والحضارات، كما سبقت الإشارة إليه فى الآية الكريمة : ﴿ **وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾[1].

ومن ذلك يتضح أن الإسلام سيقف صامداً أمام كل محاولة لتذويبه فى أية حضارة أخرى أو أى نظام عالمى جديد. ولكنه فى الوقت نفسه سيظل دائماً على استعداد لأن يكون شريكاً لأى نظام عالمى يسعى إلى خير الإنسان وتقدمه وازدهاره.

د) التطورات العلمية :

وبالإضافة إلى هذه التحديات المشار إليها هناك تحد آخر يتمثل فى الإنجازات العلمية المتلاحقة على الأرض وفى الفضاء، والتى تسارعت خطاها على نحو مذهل ووصلت الآن قبل استقبال القرن الحادى والعشرين إلى إتمام استنساخ كامل لبعض فصائل الكائنات الحية، ولعل القرن العشرين سيشهد قبل نهايته استنساخ البشر رغم المعارضة القوية لذلك فى كثير من بلاد العالم.

ويعد العلم بصفة عامة سلاح العصر، فمن يملك العلم يملك القوة. ومن يملك القوة يستطيع أن يفرض نفسه فى عالم اليوم. أما الدول التى لا تملك العلم فإنها تقنع بأن تكون تابعة ومستهلكة لمنتجات الآخرين، (وزبوناً دائماً فى «سوبر ماركت» الأقوياء).

فأين موقف الإسلام والمسلمين من ذلك كله؟ وهل استعد المسلمون للمشاركة الجادة فى الجهود العلمية ؟ وهل هناك أمل فى أن يحتل المسلمون مكاناً فى الخريطة المؤثرة للقرن الحادى والعشرين؟

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٣.

لا شك أن التوجهات الفكرية والدينية فى أى أمة لها تأثيراتها البالغة فى المواقف الحاسمة التى تتخذها الأمم والتى تحدد مصيرها ومكانها على خريطة العالم. وإذا نظرنا إلى موقف الإسلام من العلم وتطوراته ـ وهذا الموقف الدينى ينبغى أن يكون له تأثيره على توجهات المسلمين ـ فإننا نجد أن الإسلام ينفرد بين الأديان المختلفة بجعله العلم فريضة من فرائض الإسلام، لا تقل فى أهميتها عن فرائض الصوم والصلاة والزكاة، لأن العلم هو السبيل إلى إعمار الكون. وإعمار الكون فى الإسلام يعد من الأوامر الإلهية التى ينبغى تلبيتها على المستويين المادى والمعنوى ، كما جاء فى القرآن الكريم :

﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾[1]، أى: طلب منكم عمارتها [2].

والإسلام بذلك يساند العلم ويدعم مسيرته. ولا يمكن أن يكون هناك تعارض بين الإسلام وحقائق العلم بأى شكل من الأشكال. ومجال العلم فى الإسلام غير محدود ، فهو يشمل السماء والأرض وما بينهما. فليس هناك قيود ولا سدود فى الإسلام تقف فى طريق التقدم العلمى ما دام ذلك فى مصلحة الإنسان، وهذه المصلحة تحوطها القيم الأخلاقية بسياج يحميها من سوء الاستغلال. وكل تقدم علمى هو فى الوقت نفسه دعم للدين من المنظور الإسلامى لأنه يبين قدرة الخالق. ومن أجل ذلك أكد القرآن على أن العلماء هم أخشى الناس لله لأنهم أقدر الناس على معرفة أسرار الخلق وجلال الخالق.

وقضية الاستنساخ إذا كان فيها مصلحة للإنسان فى مجال النبات أو الحيوان فلا يستطيع عاقل أن يرفضها باسم الدين. أما الاستنساخ فى مجال الإنسان فإنه إذا اقتصر الأمر على استنساخ أعضاء معينة تنفع الإنسان وتقضى على كثير من آلامه حينما يحتاج إلى عضو بديل من عضو انتهت صلاحيته فليس هناك من جانب الدين ما يمنع من ذلك.

---

(١) سورة هود : آية ٦١.

(٢) يراجع فى ذلك الفصل الأول من هذا الكتاب حول موضوع «مفاتيح الحضارة فى ضوء الأمر الإلهى اقرأ»

أما الاستنساخ الكامل للإنسان فليس هناك اتفاق على أنه يحقق مصلحة واضحة للإنسان، بل العكس هو الصحيح وهو أنه ستترتب عليه مشكلات عديدة على المستويات الدينية والأخلاقية والقانونية والاجتماعية وغيرها.

إن المشكلة ـ إذن ـ ليست بين الإسلام والتطورات العلمية، ولا يمكن أن تشكل هذه التطورات تحدياً للإسلام. إنما المشكلة فى مدى انسجام المسلمين مع تعاليم الإسلام المشار إليها ومدى ملاحقتهم للتطورات العلمية، ومشاركتهم فى البحث العلمى مشاركة جادة يستطيعون من خلالها أن يعبروا إلى القرن الواحد والعشرين فى ثبات وثقة. فلا تنقص المسلمين الإمكانات المادية أو البشرية، وهم ليسوا أقل ذكاء من غيرهم؛ فالله قد أعطى العقل لكل الناس، وكما قال ديكارت: « إن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس ». فهل يقبل المسلمون التحدى ويتحركون بخطى سريعة نحو آفاق العلم الواسعة ليثبتوا وجودهم وإسهامهم فى مسيرة التقدم العلمى ليكونوا مهيئين وجديرين بالدخول إلى القرن الحادى والعشرين ؟ إن هذا ما سوف تكشف عنه السنوات القادمة.

٥- خاتمة :

وقبل أن نختم حديثنا عن الإسلام وتحديات القرن الحادى والعشرين نود أن نشير إلى أن تحديات القرن القادم أو غيرها من تحديات ليست فى حقيقة الأمر تحديات للإسلام كدين، وإنما هى تحديات لأفهام المسلمين. فإذا ارتفعت هذه الأفهام إلى مستوى الأحداث وأدركت مقتضيات العصر فستجد أن الإسلام من أشد أعوانها على التغلب على كل التحديات ؛ فالإسلام دين للحياة بكل معنى الكلمة، وهو صالح فى جوهره لكل زمان ومكان، ومتوائم مع طبيعة الإنسان.

أما إذا قصرت همم المسلمين وأفهامهم عن استيعاب تطورات العصر ومتغيرات الحياة فإنها ستكون أيضاً قاصرة عن فهم طبيعة التعاليم الإسلامية، وغير مدركة لما

تشتمل عليه من مرونة. وهذه الأفهام السقيمة هى التى تجمد الإسلام وتريد أن تشده إلى تخلفها الفكرى وتحجرها العقلى وجمودها الدينى. ومن ثم تكون أخطر على الإسلام من أية تحديات خارجية.

وينبغى على المسلمين أن يدركوا أنهم إذا أرادوا لأنفسهم الحياة فإنه ليس أمامهم ـ فى القرن الحادى والعشرين ـ خيار آخر غير خيار العلم والتقدم والحضارة، وأى طريق آخر سيستمر فى جذبهم إلى التخلف والجمود، وينتهى بهم إلى أن تتجاوزهم الأحداث وينساهم التاريخ. فالقضية ـ إذن ـ قضية مصير : إما أن يكونوا أو لا يكونوا.

ولكن الأمل معقود على أن رصيد المسلمين الحضارى وتاريخهم المجيد فى مضمار العلم والتقدم سيحفز هممهم ليستعيدوا أمجاد أسلافهم، ويكونوا جديرين بالانتساب إليهم، كما أشار إلى ذلك جمال الدين الأفغانى حينما قال : « إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم ، قد كان آباؤكم رجالاً ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم. فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم »[1].

❖❖❖

وخلاصة القول أن الإسلام بمبادئه السامية وتعاليمه الواضحة وقوته الذاتية قادر على تلبية متطلبات الحياة المعاصرة ومواجهة التحديات المستقبلية. ولم يكن الإسلام ـ ولن يكون ـ سبباً فى تعطيل مسيرة التقدم فى العالم الإسلامى على جميع المستويات.

ومن هنا يمكن القول بأن الإسلام مؤهل ـ بكل المقاييس ـ للدخول إلى القرن الحادى والعشرين ، ومؤهل للتعاون باستمرار مع كل القوى المحبة للسلام والتقدم فى العالم من أجل خير الإنسان وسعادته فى كل زمان ومكان.

---

(١) زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ١١٠ ، القاهرة ١٩٧١ م.

الفصل الثالث

الدين
فى مواجهة الإرهاب

ويتضمن هذا الفصل :

أ- دين تعمير لا تخريب.

ب - الاستنارة الدينية والتفكير العلمى.

أ- دين تعمير لا تخريب[1]

١- شعب مسالم ومتدين :

لقد امتاز شعب مصر منذ آلاف السنين بميزات عديدة ومن أهمها : أنه شعب مسالم يميل إلى السلام والأمن والاستقرار. ويلمس ذلك كل من يزور مصر ويختلط بشعبها.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الميزة على لسان سيدنا يوسف عليه السلام حينما استقبل أبويه على مشارف مصر قائلاً :

﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾[2].

وفى ظل هذا الأمن والأمان والاستقرار استطاع شعب مصر أن يبنى حضارة قبل أن يعرف العالم الحضارة ومعناها، وقد امتاز هذا الشعب الذى بنى هذه الحضارة بميزة أخرى هى أنه منذ آلاف السنين شعب متدين. وما تركه لنا المصريون القدماء يدل على عمق الدين فى نفوسهم، فكل ما تركوه لنا من آثار يمثل رمزاً للدين بطريق مباشر أو غير مباشر.

وقد استقبل شعب مصر منذ آلاف السنين أنبياء الله، فقد تزوج سيدنا إبراهيم عليه السلام السيدة هاجر المصرية وأنجبت له إسماعيل عليه السلام جد العرب، واستقبلت مصر سيدنا يوسف عليه السلام الذى تولى منصب وزير الخزانة أو وزير التموين بالمعنى المعاصر، وتربى موسى عليه السلام فى أرض مصر، ثم لجأ سيدنا عيسى مع أمه مريم عليهما السلام إلى مصر، وتزوج سيدنا محمد ﷺ من

---

(١) ألقيت هذه الكلمة فى الندوة الدينية التى عقدت عقب صلاة الجمعة بمدينة الغردقة فى ١٩/ ١٢/ ١٩٩٧م.

(٢) سورة يوسف : آية ٩٩.

مارية القبطيـة المصرية؛ فالمصريون لهم صلات قديمة بالأنبـياء. وهم أول الشعوب التى عرفت عقيدة التوحيد.

وعندما جاء الإسلام إلى مصر تلاقت طبيعة هذا الشعب المصرى الآمن المسالم المحب للدين مع طبيعة الدين الإسلامى، دين السـلام والأمن والمحبة والاستقرار. وامتزجت هاتان الطبيعتان فى أعماق شعب مصر حتى يومنا هذا.

ومن هنا فإنه إذا حَدَثَ حادث إرهابى غادر مثـلما حدث فى الأقصر فى نهاية عام ١٩٩٧م فإن هذا يُعـد أمراً شاذاً وغريباً عن طبـيعة شعب مصر، وعن طبـيعة الإسلام ذاته الذى يرفض العنف ويرفض القـتل ويرفض التدمير والتـخريب، لأنه دين جاء مؤكداً لمهمة الإنسان فى هذه الحيـاة، وهى مهمة الإعمار والبناء : إعمار الكون كله ـ مادياً ومعنوياً ـ كما جاء ذلك فى القرآن الكريم :

﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [١] أى: طلب منكم عمارتها.

والعـمـارة لا تقوم إلا بالـعلم، والعلم فى حاجـة إلى الاستـقرار، وفى ظل الاستقرار تنشأ الحضارات.

وعندما بدأت مصر تبنى حضارتها الحديثة عز ذلك على كثير من أعدائها سواء فى الداخل أو الخارج فأرادوا أن يدمروا منجزات مصر ، وأن يزعزعوا اقتصادها ، وأن يعطلوا مسـيرتها التنموية؛ ولـكن هيهات أن يصلوا إلى ما يريدون ؛ فـشعب مصر الذى عرف الحضارة قبل أن تعرفها الدنيا قادر على أن يسير قدماً محطماً كل العقـبات، ومقتلعـاً جذور الإرهاب حتى يمكن له أن يوصل الحضـاره الجديدة إلى الأجيال القادمة.

❖❖❖

(١) سورة هود : آية ٦١.

٢- الحقوق الأساسية للإنسان :

وإذا كان الإرهاب يرفع ـ زوراً وبهتاناً ـ شعارات إسلامية فإن ذلك لا يمكن أن يصدقه عاقل؛ فالإسلام قد حرم العدوان على الآخرين تحريماً قاطعاً فى قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) .

وحث على معاملتهم بالبر والعدل ما داموا لم يسيئوا إلى المسلمين ـ كما جاء فى قوله تعالى:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢).

وفضلاً عن ذلك فإن الشريعة الإسلامية قد ضمنت لكل فرد حقوقه الأساسية التى تتمثل فى حفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ الدين ، وحفظ المال، وحفظ النسل. وأول هذه الحقوق الأساسية حق الحياة لكل إنسان.

وقد كرم الله الإنسان ـ مطلق إنسان ـ بصرف النظر عن جنسه، أو لونه، أو معتقده. ومن كرمه الله لا يجوز لأحد أياً كان أن يمتهن كرامته.

ولم يكتف الإسلام باحترام الإنسان فى حياته فقط، بل امتد هذا الاحترام للإنسان بعد مماته أيضاً. فقد ورد أن النبى ﷺ كان يجلس مع بعض صحابته حينما مرت بهم جنازة فقام ﷺ واقفاً احتراماً للميت. فقال الصحابة : إنها جنازة يهودى يا رسول الله. فرد ـ عليه السلام ـ بلهجة حاسمة : « **أليست نفساً؟** » (٣) .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٩٠ .

(٢) سورة الممتحنة : آية ٨.

(٣) انظر البخارى ـ كتاب الجنائز.

فالإسلام يحترم النفس الإنسانية أياً كانت ما دامت هذه النفس لم تقدم شراً، أو إساءة للإسلام أو للمسلمين.

٣- الأخوة والتعاون :

وقد أراد الإسلام أن يرسخ فى أذهان الناس جميعاً معانى وقيماً تحملهم على البناء والتعمير، ليساعدهم بذلك على أداء مهمتهم فى هذه الحياة. وهذه المعانى والقيم تتمثل فى أمور عديدة نكتفى بإيراد معنيين منها، وهما الأخوة والتعاون.

أما الأخوة فقد حض عليها الإسلام وحرص عليها. وقد كان أول عمل قام به النبى ﷺ بعد هجرته إلى المدينة هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. والواقع أن هناك أنواعاً متعددة من الأخوة : أخوة نسب، وأخوة فى العقيدة، وأخوة فى الإنسانية. ولكن الذى يتأمل فى أخوة النسب وأخوة العقيدة يجد أنهما يرجعان فى نهاية الأمر إلى الأخوة فى الإنسانية؛ فالله سبحانه وتعالى قد خلق الناس جميعاً من نفس واحدة ـ كما يقول القرآن الكريم ـ :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ (١) ؛ فكلنا ننتسب إلى أصل واحد: « **كلكم لآدم وآدم من تراب** » .

وإذا كان الأمر كذلك فنحن جزء من كل، كل فرد منا جزء من كل. ومن أجل ذلك فإن أى إساءة تلحق بأى فرد من أفراد الإنسان تعد إساءة لكل الأفراد الآخرين، لأن الجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. وهذا أمر نعرفه جميعًا؛ ومن هنا فإن أى إساءة أو عدوان على أى فرد من أفراد الإنسانية يعد عدواناً على الإنسانية كلها. وفى ذلك يقول القرآن الكريم:

---

(١) سورة النساء : آية ١.

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (١) .

وعندما نتأمل الآية الكريمة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾(٢).

وننظر فى هذه العبارة القرآنية ﴿ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾(٣) ، والسياق هنا يدل على أن هذه الإساءة للآخرين، نجد هنا درساً عظيماً يعلمنا أن إساءتنا للآخرين هى فى نفس الوقت إساءة إلينا أيضاً، فنحن جزء من كل لا يجوز لأى فرد فينا أن يسىء إلى الآخرين لأنه بذلك يسىء إلى نفسه أيضاً.

أما المعنى الثانى وهو التعاون فإنه يعد عصب الحياة؛ وعلى أساسه يتبادل الناس المنافع ويتعاونون فيما بينهم من أجل قيام مصالح الدين والدنيا معاً. وقد حض الإسلام على التعاون فى الخير ونهى عن التعاون فى الشر ـ كما جاء فى القرآن الكريم ـ :

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(٤).

وبهذا التعاون على البر والتقوى يستطيع الناس أن يبنوا وأن يعمروا : يبنوا السلام، ويصنعوا الحضارة. والحضارة أخلاق وقيم ومبادئ ومثل عليا كريمة يحض عليها الإسلام. وهذه الحضارة هى نتاج علم ونتاج عمل. والمسلمون مطالبون دائماً بالعلم وبالعمل حتى يعمروا ولا يخربوا.

---

(١) سورة المائدة : آية ٣٢.

(٢) ، (٣) سورة الحجرات : آية ١١.

(٤) سورة المائدة : آية ٢.

٤- خـــاتمة :

هذه هى مبادئ الإسلام الواضحة كل الوضوح والتى لا تحتاج إلى إعمال فكر حتى يستطيع الإنسـان أن يدركها. قيم عليا : محـبة وتراحم وسلام وأمن وأخوة وتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

أما تلـك الفئـة الباغـية التـى اختـارت طريـق القـتـل والتدمير والتخريب فإنه لا يشك عاقل فى أن ما تقـترفه من إثم وبغى وعدوان يعتبـر جرائم ضد الدين ، وضد إرادة الله، وضد الأخلاق ، وضد الإنسانيـة، وضد كل القيم النبيلة، وضد كل شيء جميل فى حياتنا. والفـرق بين الطريقين واضح وضوح الشمس، فهؤلاء الذين استحلوا القتل والتدمير والتخريـب قد اختاروا لأنفسهم سبيل الشيطان الذى أغواهم وأعـمى أبصارهم وبـصائرهم، فراحـوا يدمرون ويقـتلون ويسفـكون دماء الأبرياء بلا تمييز بين صغـير وكبير وطفل وامرأة. أما الإسلام فـهو سبيل الله الذى وصفه فى القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[1].

والمسلمون يتجهون إلى ربهم فى صلواتهم الخمس اليومية بالدعاء قائلين:

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧ ﴾[2].

ومن ذلك يتضح أن ما يرفـعه المخربون من شعـارات زائفة لا يمكن أن يخدع أحداً؛ فـباطلهم ظـاهر لكل ذى عينين. وواجـبنا أن نحمى وطننا من شـرور هذه

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٥٣.

(٢) فاتحة الكتاب : الآيتان ٦، ٧.

الفئة الضالة المضلة حتى تتفرغ البلاد للبناء والتعمير، وتجنى ثمار التنمية الشاملة التى تشهدها مصرنا العزيزة، وينعم المواطنون بالأمن والأمان والاستقرار. فالأمر جد لا هزل، إنه يتعلق بمصير أمة ومستقبل شعب ، ولا يجوز لنا أن نفرط فى مستقبل أمتنا، ومستقبل أولادنا، ومستقبل بلادنا. إنه قدرنا وعلينا أن نستجيب لنداء الواجب حماية للدين والوطن.

ب- الاستنارة الدينية والتفكير العلمى

١ - تمهيد :

عندما نتحدث فى هذا الفصل الذى يحمل عنوان (الدين فى مواجهة الإرهاب) عن الاستنارة الدينية والتفكير العلمى فنحن بذلك لا نبعد كثيراً عن جوهر موضوع هذا الفصل. فالإرهاب فى العادة يعتمد على فكر خاطئ - هذا إذا كان لديه فكر أصلاً - ومن هنا فإن إبراز الأفكار الإيجابية - بإلقاء الضوء على موضوع الاستنارة الدينية والتفكير العلمى - فيه أبلغ رد - بطريق غير مباشر - على الأفكار الخاطئة والمفاهيم المغلوطة التى يروج لها المتطرفون. فالتطرف يعتمد على إغلاق منافذ التفكير السليم لدى ضحاياه.

ونحن نريد هنا أن نفتح هذه المنافذ على مصراعيها لتطرد بإشعاعها ظلام التطرف وتكشف بالتالى عن الوجه القبيح للإرهاب. وفى ذلك دعوة إلى التفكير السليم. والإنسان الذى يستخدم عقله لا يستطيع فكر متطرف أن يخدعه أو يؤثر فيه. وفى هذا الإطار نتناول بالبحث موضوع الاستنارة الدينية والتفكير العلمى.

من المعلوم أن الطبيعة الإنسانية طبيعة مركبة، وهناك حاجات إنسانية فطرية لا بد من إشباعها تتعلق بالجسم والعقل والروح والوجدان. والشخصية السوية هى تلك التى يتم فيها التوازن فى تلبية متطلبات هذه الجوانب الأساسية. فإذا اختل هذا التوازن اختلت الشخصية الإنسانية.

وإذا كان الجسم فى حاجة إلى الغذاء فإن غذاء العقل هو المعرفة وغذاء الروح هو الدين. وإذا كان الجسم لا يستغنى عن الغذاء فإن الإنسان - بوصفه إنسانًا - لا يستغنى عن العقل والمعارف والعلوم، كما لا يستغنى عن الدين والسمو الروحى والقيم والمثاليات.

ومن هنا فإننا حين نتحدث عن الدين والعلم فنحن لسنا أمام خيارين إما الدين وإما العلم، وإنما نحن ـ كبشر ـ فى حاجة إليهما معاً. ويخدع الإنسان نفسه أحياناً حين يظن أنه يستطيع الاستغناء عن الدين. والواقع أنه عندما يفعل ذلك نجده يبحث لنفسه عن شىء آخر ـ يكون عوضاً عن الدين ـ يجعل منه معبوده البديل. وتاريخ البشرية القديم والحديث حافل بالأمثلة العديدة فى هذا الصدد.

٢- الاستنارة الدينية :

وإذا كان الأمر كذلك وهو أننا فى حاجة إلى الدين والعلم معاً فما المقصود ـ إذن ـ بالاستنارة الدينية؟ هل تعنى شيئاً آخر زائدًا على الدين ؟.

إن مصطلح الاستنارة والتنوير وما يتصل بهما يرجع فى العربية إلى أصل واحد هو النور. ومن المعروف أن العقل الإنسانى يعد نوراً لأنه يبدد ظلمات الجهل أمام الإنسان ، وينير له طريقه بالعلم والمعرفة ؛ ومن هنا وصفه حجة الإسلام الغزالى بأنه « **أنموذج من نور الله** ».

فمصطلح الاستنارة ـ إذن ـ يعنى ضرورة إعمال العقل والتمسك به والرجوع إليه، وتمكينه من أداء دوره كاملاً فى الحياة.

فإذا وصفنا الاستنارة بأنها دينية فمعنى ذلك أن نعمل العقل فى فهمنا للدين، وأن نقرأ الدين فى ضوء مقررات العقل السليم. وإذا كان الأمر كذلك فإن السؤال الذى يفرض نفسه هو : هل يتناقض الدين حقاً مع مفهوم الاستنارة الدينية بالمعنى الذى أشرنا إليه ؟.

إن الإجابة عن هذا السؤال ـ من وجهة النظر الإسلامية ـ هى النفى القاطع لوجود مثل هذا التناقض لسبب بسيط وهو أنه لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين الدين والعقل فى الإسلام.

وقد أكد الشيخ محمد عبده على ذلك حين أشار إلى أن الدين إذا جاء بشيء يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل، كما قرر أيضاً أن **«العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين. فالدين عُرِفَ بالعقل، ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معاً حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة فى المدنية الجديدة»**.

وقد سبق أن عبر فلاسفة المسلمين عن الصلة الحميمة بين الدين والعقل بما لا يدع مجالاً لأى تناقض بينهما. وفى ذلك يقول حجة الإسلام الغزالى ـ المتوفى عام ١١١١م ـ : « **العقل كالأساس والشرع كالبناء، ولن يغنى أساس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس. فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان بل متحدان** ».

ومن هذا المنطلق يقرر أنه إذا دل نظر العقل ودليله على بطلان ظاهر النص الدينى وجب تأويل النص بما يتفق مع العقل. ورأى ابن رشد فى هذا الصدد لا يخرج عن هذا الإطار.

ولتقريب الأمر إلى الأذهان حتى لا نظل فى عالم التجريدات نضرب مثالاً واحداً على ما نقول؛ فالقرآن الكريم عندما يقول: ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ [1] فإن العقل لا يتصور أن يكون لله يد. وهنا يلجأ العلماء إلى تفسير اليد بالقوة مثلاً. وهذا التفسير يفرضه العقل تأويلاً لظاهر النص.

وإذا كان الدين لا يتعارض مع العقل فإن الاستنارة الدينية ـ إذن ـ أمر مطلوب وضرورى لأنها تعنى استبعاد التفسيرات الخرافية واللاعقلية فى فهم الدين وظواهر الكون، ورفض كل ما يتعارض مع مقررات العقل السليم.

وكمثال على هذا الرفض نشير هنا إلى موقف حاسم فى هذا الصدد من مواقف النبى ﷺ : فعندما مات ابنه إبراهيم حزن عليه حزناً شديداً. وقد

---

(١) سورة الفتح : آية ١٠.

تصادف أن كسفت الشمس فى ذلك اليوم، فقال الصحابة ـ بحسن نية ـ: لقد كسفت الشمس مشاركة فى الحزن على موت إبراهيم. فرد النبى ﷺ عليهم قائلاً : « **إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد من الناس ولكنهما آيتان من آيات الله** » (١).

٣- التفكير العلمى :

وهذا المثال يوصلنا إلى الشق الثانى فى موضوعنا هنا وهو التفكير العلمى. فالرد النبوى ـ الذى أشرنا إليه ـ يشتمل على توجيه مهم فى هذا الصدد، وهو ضرورة إرجاع الأمور إلى أسبابها الحقيقية وليس المتوهمة. وهذا يتضمن رفضاً قاطعاً لكل تفكير غير علمى وغير عقلى. والتفكير ـ كما هو معروف ـ من وظائف العقل الإنسانى. فإذا وصفنا هذا التفكير بأنه تفكير علمى فإن هذا يعنى أنه تفكير جاد ومنظم يسير وفق منهج محدد ويهدف إلى عاية محددة وهى العلم والمعرفة.

وقد حث الإسلام على التفكير، وذلك عن طريق الاستخدام الأمثل للعقل البشرى، بل ذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك بأن جعل العقل الإنسانى مسئولية سوف يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة، كما يقول القرآن الكريم :

﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ (٢).

كما جعل الإسلام عدم استخدام العقل ذنباً من الذنوب ينزل بالإنسان إلى مرتبة أقل من مرتبة الحيوان ، ويعبر القرآن عن ذلك بقوله :

﴿ **أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ** ﴾ (٣).

---

(١) رواه البخارى.

(٢) سورة الإسراء : آية ٣٦.

(٣) سورة الأعراف : آية ١٧٩.

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ ﴾[1] .

وإذا كان ابن رشد فى السابق قد صور العلاقة بين الحكمة والدين بقوله : «**الحكمة صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة، وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة**» فإننا نستطيع اليوم أن نقول : إن الاستنارة الدينية هى السند المكين والنصير الحميم للتفكير العلمى .

ومن المعروف أن ابن رشد كان قاضى القضاة فى الأندلس، وفى الوقت نفسه كان فيلسوفاً عظيماً وطبيباً ماهراً؛ ويُعد ذلك من أبرز الأمثلة على مدى وثوق الصلة بين الاستنارة الدينية والتفكير العلمى فى شخص ابن رشد. وهناك العديد من النماذج المضيئة فى هذا الصدد فى تاريخ الحضارة الإسلامية.

فلا يوجد ـ إذن ـ تناقض بين الفهم العقلى للدين أو ما يسمى بالاستنارة الدينية وبين التفكير العلمى، ولا تصادم بينهما ، ولا يجوز أن يكون هناك مثل هذا التناقض على الإطلاق.

ويصف الغزالى حال من يعتقد أن هناك تناقضاً بين العلوم الدينية والعلوم العقلية بأن ذلك يعد « **عمى فى عين البصيرة** ».

فالدين من الله والعلم من الله أيضاً. إنه السلاح الذى أعطاه الله للإنسان قبل أن يهبط إلى الأرض ليتغلب به على كل ما يصادفه من عقبات. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[2].

كما أن الدين الإسلامى كان أيضاً منذ البداية مؤسساً على هذا الجانب العلمى، كما يتضح ذلك من الآيات الأولى من الوحى الإلهى على محمد ﷺ :

---

(١) سورة الملك : الآيتان ١٠، ١١.

(٢) سورة البقرة : آية ٣١.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ (١).

وطلب القراءة هنا طلب مزدوج يشمل قراءة الكتاب المسطور الموحى به وهو القرآن الكريم، وقراءة الكون المفتوح. وهذا جانب يقتضى العلم والدراسة والبحث والتنقيب لكى يكتشف الإنسان القوانين التى تحكم هذا الكون من أجل تحقيق الخير لكل البشر.

٤ - خـــاتمة :

وبعد أن اتضحت لنا الصلة الوثيقة بين الاستنارة الدينية والتفكير العلمى يتحتم علينا أن نجيب عن السؤال التالى : ما الذى يمكن أن نستفيده اليوم من طرح هذا الموضوع؟ وما أهميته فى حياتنا المعاصرة؟.

إننا فى واقع الأمر فى أشد الحاجة إلى إدراك هذه المفاهيم إدراكاً جيداً والإحاطة بما تشتمل عليه من معان لكى نستطيع مواجهة التيارات الجامدة والمتطرفة على السواء، نواجهها بالفهم العقلى والإدراك الواعى للدين من جانب، وبضرورة التفكير العلمى السليم من جانب آخر.

وبهذين الجناحين نستطيع لا أن نسابق الآخرين عدواً، بل أن نطير بهما محلقين فى آفاق التقدم.

ونود أن نؤكد مرة أخرى على أن التقدم الحضارى والسباق فى ميدان العلم يُعد فريضة دينية. فالإنسان قد كلفه الله بعمارة الأرض، وهذا أمر لا يتأتى إلا بالعلم. ومعلوم أن العلم فى الإسلام فريضة لا تقل عن فريضة الصوم والزكاة والحج.

---

(١) سورة العلق : الآيات ١ - ٥.

والجمود الدينى ـ وهو نقيض الاستنارة الدينية ـ لا يتفق مع التفكير العلمى، ويتجه دائماً إلى التفكير اللاعقلى. وكلا الأمرين ـ الجمود الدينى ، والتفكير اللاعقلى ـ من شأنهما أن يشدا المجتمع إلى الوراء ويعطلا نموه وتقدمه، فهما يكرهان التقدم وينفران من كل جديد. وهذا ما لا يقره دين صحيح ولا عقل سليم.

ومن هنا تأتى أهمية التوعية الدينية المؤسسة على مقررات العقل السليم، والتوعية العلمية المبنية على المناهج العلمية الصحيحة، حتى يتبين للجميع أنه ليس هناك أساس للخصومة المصطنعة بين الدين والعلم. فهذه الخصومة ليست فى صالح الدين ولا فى صالح العلم ولا فى صالح المجتمع. وعلينا أن نربى أبناءنا وبناتنا على هذه الأسس التى تهيئهم للإسهام الجاد فى بناء المجتمع وتقدمه وازدهاره، وفى الوقت نفسه تعصمهم من الانحراف والتطرف أو الجمود والانغلاق.

وخير ما أختم به هذه الكلمة الموجزة آية قرآنية كريمة تبين أن مجال التفكير العلمى فى الإسلام يشمل الأرض والسماء وما بينهما . . تقول هذه الآية:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]. صدق الله العظيم.

❖❖❖

(١) سورة الجاثية . آية ١٣ .